الخطاب النسوي المعاصر: بين المكابدة والتأسيس
(محاولة فلسفية: في قراءة بعض النماذج الأدبية لأحلام مستغانمي)

عائشة الحضيري
باحثة في الفلسفة/تونس

لعلّه من المهم أن نسجّل شكل المفارقة القائمة حول واقع الخطاب الفكري المعاصر، والإنساني، على وجه عمومه. فإذا كان نمط الخطاب الإنساني يقوم على الشمولية والعمومية والاشتراك بين أفراد الجنس البشري دون اعتبار اختلاف الأنثوية، عن الذكورية، من جهة، فإن ما نلمحه في أغلب الأوقات يتّصل باقتصار النسبة الفكرية التأريخية ولا سيما الفلسفية إلى أقلام ذكورية رغم غزارة الكتابة النسائية المعاصرة خاصة، من جهة موازية. فهل يعني ذلك أن المرأة تقتصر على أن تكون موضوعاً (objet/object) للكتابة الفلسفية (تتقاطعه مواضيع العلاقة البينذاتية، من خلال اللقاء بالآخر الانساني: ذات مقابلة ومتقاطعة، لغة، حبا، كراهية، جسدا، امتدادا، وفكرا..) أم أن المرأة قابلة أن تكون ذاتاً (sujet/subject) فاعلة للكتابة الفكرية بوجه عام والفلسفية على وجه الخصوص؟

هل يمكن أن يتحوّل القلم النسوي المعاصر إلى تقاطع بين ذات منكتبة كموضوع، وذات مفكرة كاتبة وفاعلة؟ وهل يتحوّل الخطاب النسوي المعاصر إلى خطاب معلن عن تجربة وجود، وحضور إنسان يسكن العالم حتى تسكنه هواجسه وانفلاتاته وتجاربه المتراوحة بين الحرمان والإمكان بقطع النظر عن تمييز جنسي بين ذكر وأنثى؟

من الأكيد – ونحن، بصدد بلورة نصّ نقدي موضوعي، حول "خطاب ذكوري" قد يكون ادّعى لذاته إطلاقية الحضور، من جهة، وبصدد، تأسيس قول حول إمكان قيام خطاب نسوي فلسفي معاصر، من جهة موازية –، أننا نحتاج أن ننزّل موضوع نظرنا حيّز التجربة والاختبار انطلاقا من الاشتغال على بعض نماذج من المؤلّفات (الكتب) النسوية العربية، نتخيّر أن تكون التجربة الروائية والأدبية لأحلام مستغانمي نموذجا لها.

لماذا أحلام مستغانمي؟ هل يمكن أن نرصد من خلال مؤلفاتها: "ذاكرة الجسد"، "فوضى الحواس" و"قلوبهم معنا وقنابلهم فوقنا" مثلاً، شكلا من أشكال النقد للخطاب الذكوري؟ بمعنى، هل يمكن أن نصنّف مؤلّفات أحلام مستغانمي ضمن مجال الخطابات النسائية المعاصرة الناقدة للخطاب الذكوري من جهة، والمشرّعة لإمكان خطاب نسوي مخالف يأسس لنمط مغاير من أنماط الخطاب، من جهة مقابلة؟ وإذا كان من الممكن ذلك، فهل يتسنّى أن يُصنّف هذا الخطاب ضمن سياق القول الفلسفي؟ أو ضمن أحد أشكال النسقية الفلسفية المنسجمة في بنيتها الفكرية الداخلية؟

أي، هل يمكن أن نعثر في نسيج قلمها، على مراوحة ما بين ما هو فعل أدبي لا ينضبط لنسقية الخطاب الفلسفي وبين ما هو انهمام وهمّ وجوديين، قد يحفظان مضمونا فلسفيا تترجمه حروف الأدب ويؤسس لفلسفة الانسان؟

قد يبدو من الغرابة بمكان أن نستدعي نموذجا أدبيا إلى مجال الفلسفة ليكون منطلقا للقول الفلسفي فيه، إلا أننا قد نجد في ذلك ما يبرر وجهتنا. فتخيّرنا لقلم أحلام مستغانمي منطلقا لبحثنا يتصل خاصة بمسألتين:

أوّلا: ما ارتبط بتكوينها العلمي والأكاديمي، فأحلام حاصلة على دكتوراه في علم اجتماع، وإذا ما أردنا لاختصاصها تصنيفا من جهة علاقته بالفلسفة ما قبل المعاصرة، يمكن القول أنه مبحث من مباحث الفلسفة قبل انفصال العلوم الإنسانية واستقلالها بمباحثها، تشبّها بعلومية العلم، ومحايثة لمواضيع الفلسفة وبعض مناهجها.

ثانيا: ما كان من حضورها المكثّف على مستوى الكتابة العربية النسائية المعاصرة (ذاكرة الجسد، فوضى الحواس، عابر سرير، نسيانكم، قلوبهم معنا وقنابلهم علينا..) من جهة، ولما بدا من تسلسل في مستوى ثلاثيتها الروائية (ذاكرة

الجسد، فوضى الحواس، وعابر سرير- والتي ستقتصر قراءتنا على الأولـيين منـها فحسب-) من جهة مغايرة، بما قد يؤشّر بوجود نظم لقول قد يشترك، موضـوعا ونهجا، وقد يقدّم صورة لمكابدة وجودية يؤرّخها قلم امـرأة، وينسـج ملامـح فلسفتها، لا على طريقة الرجال.

فهل يمكن إذا، أن نلمح في مستوى كتابات أحلام مستغانمي ما من شأنه أن يعلن عن بعض المداخل الإشكالية لنقد الخطاب الذكوري المعاصر، وهل يمكن تبعا لذلك أن نصنّف كتاباتها أو بعضا منها - على الأقل-، ضـمن نمـط للخطـاب الفلسفي النسوي المعاصر يتراوح بين مكابدة الاستبعاد والتغييب وإمكان الوجود، أم أنها لا تعدو أن تكون ارهاصات فكرية تتجاوز التقليدي من الكتابـة الروائيـة المعاصرة، وتظل دون الكتابة الفلسفية نهجا ومضمونا؟

ثمّ، هل يمكن للخطاب الذكوري أن ينكتب بقلم امـرأة، وهـل يتسـنّى للخطاب الأنثوي أن يضمن استمراريته بقلم ذكوري مهيمن، أم أن لكلاهمـا أن يستعيد ترتيب موقعه على هيئة يمكن أن يتحوّل بمقتضاها ضِـربا الخطـاب مـن ضروب النسبة الذكورية المحض، أو النسبة الأنثوية المحض، إلى قـول في الإنسـان يؤثثان له معا: "ذكر وأنثى "؟

إن محاولة الإجابة عن مثل هذه الأسئلة لا تفترض أن تكـون علـى شـكل إجابات مباشرة متسرّعة أو جاهزة إذا ما رمنا للقول موضوعية ما، أو أسس نقدية فعلية، ذلك أن تصنيف كتابة أحلام من جهة مقارنتها بالخطاب الـذكوري مـن جهة، وبالخطاب الفلسفي من جهة موازية يفترض التوقّف عند مرحلتين أساسيتين:

أوّلا: أن تبويب مؤلفاتها ضمن أصناف الخطاب عموما، ومن زاويـة رؤيتـه للخطاب الذكوري من ناحية، ورؤيته لذاته على وجه الخصوص، يقتضي مباشـرة تحليلية ونقدية لمضامين كتاباتها، ولما من شأنه أن يكون موضوعا لفعلها الإبداعي.

إلا أننا - ونظرا لمساحة من القول لا تتجاوز بعض الصفحات، سنقتصر على بعض المعطيات العامة، التي تقف عندها قراءتنا لبعض مؤلفاتهـا، لنرسـم بعـض المؤشرات والملامح الأوّلية لخطاب نسوي له آلياته الخاصّة في أن يتّخذ له موقعا بين المواقع التأليفية المعاصرة، فهل يمكن أن نعثر مثلا في النسـيج التـأليفي لأحـلام مستغانمي على ما من شأنه أن يكون مدخلا مـن مـداخل النقديـة للخطـاب

الذكوري، أو شكلا من أشكال التجاوز، أو المحايثة له؟ وكيف يستعيد لذاته موقعا ينفلت من خلاله، من موقع حرمان إلى موقع وجود ممكن، بل كائن ومتأكّد؟

ثانيا: أن محاولة تصنيف قولها من جهة انتسابه للخطاب الفلسفي، تفترض، ضبط الشروط أو المقاييس العلمية الموضوعية التي يمكن أن يتسنى لنا الحكم من خلالها على أي جنس من أجناس الكتابة.

ولعلنا نكتفي في هذا المستوى بتحديد شرطين أساسين من شروط قيام الخطاب الفلسفي حتى نميّز من خلال مقارنته مع ما غايره، بين ما يمكن أن ينتسب إليه، وما يمكن أن يخرج عن مجاله: ونقصد بالشرطين، ما اتصل أساسا بمسألتي: المنهج والموضوع.

فهل يمكن أن تتضمّن كتابات أحلام منهجا وموضوعا ما، من شأنهما أن يحيلا إلى شكل من أشكال الانتماء الفلسفي، أم أن عملها الابداعي قد لا يبلغ مبلغ انتسابه إلى الفلسفي إلا على جهة ما هو نتاج إبداعي إنساني فحسب؟

I – موقع الخطاب الذكوري بين النقد والانتماء: انطلاقا من رواية "ذاكرة الجسد":

في روايتها ذاكرة الجسد "ينفتح القول الروائي لأحلام مستغانمي، إحالة إلى ما يمكن للقلم أن يصنع:

"قبل اليوم كنت أعتقد أننا لا يمكن أن نكتب عن حياتنا إلا عندما نشفى منها.. عندما يمكن أن نلمس جراحنا بقلم، دون أن نتألم مرّة أخرى.. عندما نقدر على النظر خلفنا دون حنين، دون جنون، ودون حقد أيضا"[1]..

فالقول يبدو ترددا أوّليا حول "مشروع كتابة".. تأطيرا لملامح ما سينكتب أو تخمينا حول شكل من أشكال الطرح الموضوعي، يأمل أن يحوّل الألم الوجداني إلى قول موضوعي قادر على الحياد والنسيان، يفسح للكلمات قولا لمعنى تنطقه ورقات: "**بعضها مسودّات قديمة، وأخرى أوراق بيضاء تنتظر منذ أيام بعض الكلمات فقط.. كي تدبّ فيها الحياة، وتتحوّل من ورق إلى أيام**"[2].. إنه إذا،

---

1 أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، منشورات أحلام مستغانمي، بيروت، ط.19، 2003، ص 7.

2 نفس المرجع، ص 8.

مشروع لتحويل الألم إلى معنى ينكتب، وإحياء لما مات منه، وبعثه على شكل دبيب حياة يجعل من القلم هو "**الأكثر بوحا والأكثر جرحا**"[1]..

إن أكثر ما يلفت انتباهنا في هذه الأسطر التي خطّها قلم الكاتبة أنها تأتي في روايتها على لسان رجل.. وكأنها تتجه إلى إعلان مشروعها، من خلاله.. وكأنها تسعى إلى ترميم ألم.. كان له فيه شأن تغييبها.. وكأنها تستعيده، رجُلها، ألمها، لتستعيد ترميمه وترميم ألمها.

بل لعل أغرب ما يشدّ انتباهنا في مستوى هذه الرواية، أن تتخذ مؤلّفتها من بطل الرواية "رجلا-ذكرا"، له من التاريخ ما يكفي لقصة وطن.. إلا أنه رجل، تعيد كلماتها صنعه، فلا تتحدد ملامحه إلا من خلال حضور امرأة- أنثى، تتجاذبه على أكثر من وجه: امرأة خلف الورق تكتبه لتقوله على لسانها - لسان قلمها، وامرأة أمام الذاكرة يقول من خلالها ذاكرته تأريخا مدّا وامتدادا.

فمن خلال كلمات رجل تصنعها أنامل امرأة في "ذاكرة الجسد"، تتحوّل المرأة إلى تجربة، حياة، وطن للقرار الجسدي والنفسي والتاريخي، مما يسمح للسؤال بإمكان: لِمَ تتخفى حروف الكاتبة وراء نبرات رجل يقولها، على طريقتها؟ أية علاقة يمكن أن تصِل "وصْل" الخطاب الأنثوي بـ "فصْل" الخطاب الذكوري؟هل هو انعكاس آخر لواقع اعتاد أن ينسب آلية الكتابة والتأريخ للذكور، أم هو تحدّ لاختراق المرأة لمجال ادّعى الذكور احتكار القول فيه؟ وتبعا لذلك، هل يمكن أن نلمح في هذا المنحى الروائي، شكلا من أشكال النقدية المضمرة لطبيعة الخطاب الذكوري، وإن كانت نقدية من طبيعة المسكوت عنه؟

لعل الأمر يأخذ منحى آخر في تصوّر أحلام، إعادة الأمور إلى تصوّر انقلابي، تجربة للكتابة، اختبار لما يمكن أن يكون: ماذا لو "أنه في البدء كان الخطاب نتاجا لكتابة امرأة"..؟ ما الذي يمكن أن يتغيّر في الوجه الابداعي لو أن الرجل يقول المرأة ويقول ذاته، بأسلوب امرأة؟ أتراها تنتصر لأنوثة مغيبة، أم لذكورة يمكن أن تكون أجمل لو رسمتها أنامل انثى؟

---

1 نفس المرجع، ص 9.

قد يكون شيئا من هذا وذاك: تأكيد لكيان أنثوي إبداعي، وترميم لـذكورة احتكرت التاريخ والقلم.. ماذا لو يدعوك قلم امرأة أيهـا الرجـل، إلى مرسـم إبداعها.. ماذا لو حوّلك قلمها إلى روايتها التي ترويك من خلال امتداد ذاكرتـك المسكونة بها.. ذاكرة للوطن، لملامح نساء قابعات خلف المعاناة، لمعركة التحريـر الجزائرية، ولملامح امرأة تكتبها ريشة "**رجل الذراع الواحدة**" حين يتقـاطع بهـا تاريخه ماضيا ولاحقا.. فتنتزع منه اعترافا بأنها سيدة المكان والزمان، امرأة الأبعاد المتجمعة:

"أكان يمكن لي إذا أن أحبَّكِ بطريقة واحدة؟.. لم تكوني امـرأة.. كنـتِ مدينة.. مدينة نساء متناقضات، مختلفات في أعمارهن وفي ملامحهن وفي ثيـابهن وفي عطرهن، في خجلهنّ وفي جرأتهنّ، نساء من قبل جيل أمّي إلى أيّامك أنتِ.. نساء كلّهن أنتِ"[1]..؟؟!!

إن ما نلمحه من أسلوب ومعنى، في رواية أحلام، من شأنه أن يحيل إلى تمثّـل شكل من أشكال النقدية غير المعلنة، وكأنها تروم قولا ورد على طريقة التحـدّي لكتابة ذكورية: "هذه المرّة سأنكتب أنا الأنثى على لسـانك لا كمـا اختارتـه كلماتك، بل على طريقتي التي اختارها قلمي، ليجري بها لسانك.. فماذا لو تحوّلنا عن زاوية ذكورية للنظر، أَلِفنا من خلالها اعتياد الأشياء.. ماذا لو أننا نقرأ حضور المرأة، على طريقة امرأة أثثت للكتابة في روايتها، ببطولة رجل؟؟!!

بالتأكيد أننا لن ننساق في جملة من التفاصيل الروائية في روايـة "ذاكـرة الجسد"، فليس فِعْلنا من جنس العمل الأدبـي، وإنما تفـرض علينـا تقنيـةُ المتفلسف أن نستقلّ في ذلك بقراءتنا، لنقف عند ثلاث مسائل لا تخلو من أهمية في تصورنا:

أوّلا: أن رواية ذاكرة الجسد لا تمتنع أن تتضمن في بنيتها ومحتواها ضربا مـن ضروب النقد للخطاب الذكوري وإن بدا من قبيل النقد المضمر لا المعلـن: نقـد لذكورية الخطاب، من جهة كونه خطابا لا ينفصل أن يتخذ من المرأة موضـوعا للقول.

---

1 نفس المرجع، ص 141.

نعني بذلك، أن الخطاب الذكوري وإن ادّعى استقلاليته واكتفاءه على وجه العموم، فإنه يبدو – من خلال نموذج هذه الرواية – أنه لم يرسم بعدُ استقلاليته بعيدا عن مواضيع المرأة التي تلبَسُه وتسكُنه، وهي صورة أقرب إلى أن تجعلنا نتمثّل حضور الأقلام الذكورية في معبد، آلهتُه امرأة..

فسواء كان الحرف، نقدا، أو وَصْلا، أو تكريما أو ابتذالا.. فالموضوع واحد: المرأة بكل جوانبها وتعقيداتها وبساطتها.. فكأنّ أحلام مستغانمي، إذ تتخذ من بطل روايتها رجلا، وتستعيد من خلاله بلورة المعنى، إنما تبطن نقدا، بأن الخطاب الذكوري لم يحقق بعد استقلاليته الذكورية الفعلية، لأنه غير قادر على أن يحيا أو أن ينكتب بعيدا عن المواضيع الملامسة للمرأة الإنسان بأبعادها المتعددة، وكأنّه لم يكن له ليكون، لولا كيان شرط إمكانه الأساسي، الموضوع المحور للكتابة: "المرأة"..

فمن جهة كونه خطاب يَنْسب إلى ذاته الأولويّة والتأسيس فإنه لا يستقلّ في مواضيعه عن شواغل الإنسان الذي تُعدّ المرأة طرفا محوريا فيه.. فلا الكتابة الأدبية استطاعت أن تنسج معالمها داخل بوتقة ذكورية فحسب، ولا الخطاب الفلسفي الذكوري استطاع أن ينتصر لقيم رجالية خاصة، بل أن قيم الإنسان لا يستقيم القول فيها ما لم تكن تتصل بكونيته، وبحضور كل أشكاله وأجناسه المتناقضة.

ثانيا: أن في اضطلاع الكاتبة بالرواية، وبتعمّدها أن يكون بطلها ذكرا (خالد بن طوبال) إحالة إلى شكل آخر من أشكال النقدية، يتجه إلى تأكيد قدرة المرأة الابداعية، قدرة تضاهي، أو تتفوق على قدرة الرجل في الكتابة، وإن كان دور البطولة فيها ينتسب إلى رجل، وكأنها تلفت النظر إلى أن تعامل المرأة مع المختلف، لا يحجب قدرتها على الفعل، وعلى أن تنكتب سير الرجال على يدها، بحروف قلمها.. فكأن المؤلّفة تميل إلى تأكيد حضور الذات – الأنثى، كحضور يتأكّد فيه دورها كـ "ذات" فاعلة وقادرة على قلب الأدوار، دون أن يقتصر وجودها على أن تكون "موضوعا" مُستَهلكا في مجال التأليف.

ثالثا: أنه يبدو أن أحلام تنبّه من خلال "ذاكرة الجسد" إلى مسألة أساسية: تتعلق بتلك المسافة الحميمة بين المرأة والرجل في مجال الكتابة، وكأنه لا مجال

لانفصال ما كان ملتصقا طبيعة وثقافة، فالرجل على بطولته، وتاريخه، ووجعه، واحتماله كما بدا في صورة بطل روايتها، يبدو غير قادر على أن يكون، خارجا عن ملامح امرأة، فهو يقولها إذ يقول نفسه، ويرويها إذ يروي ذاكرته، ويمتد إليها إذ يأمل حلمه.. يقولها، يكتبها، يرويها ويأملها، بأحرف وكلمات امرأة ترويه لا غير.. إنهما يُرويان معا بفعل تداخل واشتراك في الوجود والتاريخ، ينكتبان معا وفق تمثّل يراوح في الكتابة بين المدّ والامتداد...

قد يبدو إذا، في ما نلمح من رواية "ذاكرة الجسد"، ميل صامت إلى تقويض تقليد، لا يعادي كلمات رجل ولكنه يرفض أن تنبذ حروف إمرأة.، بل ويرفض أن تعلن أقوال رجل بعيدا عن كينونة لخطاب امرأة... بل لعل فعل الاشتراك يأخذ طابعا أكثر إلتباسا وتعقيدا، وأكثر رمزية وحضورا، حين تتخيّر أحلام أن تستعيد قولا في التاريخ على طريقتها، وحين تروم أن تسطرّ المعنى، على شكل تشابك للتجربة و"فوضى للحواس"..

II – رواية "فوضى الحواس": تجربة الخطاب بوصفه امتدادا لنتاج إنساني مشترك، فوضى للمعاني والحواس: (تجربة الإنسان):

على خلاف ما نجده في "ذاكرة الجسد" من تخفّ للراوئية وراء شخصية البطل، يأخذ الخطاب في رواية "فوضى الحواس"، شكلا مغايرا، تستعيد خلاله الكاتبة موقعها المباشر للرواية، إذ تنحى منحى معاكسا تماما لموقعها الأوّل حين تعمد إلى أن يرويها بطلها على طريقتها، تتّجه هذه المرّة لترويه دون وساطة.. لتروي، ذلك الرجل، وذلك المشترك الإنساني بينهما، على طريقة شوقها له وعلى طريقة لامبالاته بها، انجذابا وتباعدا، تستعيد من خلاله موقعها كامرأة "محور"، سطّرها "هامشُ" انفعالاته..

فها "هو ذا، لم يتغير. مازال يتقوق إلى الكلام الذي لا يقال بغير العينين. وهي لا تملك إلا أن تصمت، كي ينصتا معا إلى صخب الصمت بين عاشقين سابقين... بين نظرتين، يتابع الحب تمرّبه العابث. وذاكرة العشق ترتبك"[1]..

1 أحلام مستغانمي، فوضى الحواس، منشورات أحلام مستغانمي، بيروت، ط. 13، 2003، ص 15.

فإذا كان البعد الروائي في هذا المؤلَّف يعلن عن "فوضى للحواس" تلتهب حينا، تنشطر وتتّحد، تتباعد وتتّصل، وتخرّ، لتنتفض حياة من جديد، أحيانا، فإن البعد الفلسفي من شأنه أن يحيل إلى أن ذلك الفعل الأدبي ليس إلا تصويرا لفوضى لا تنفصل عن أبعاد الإنسان، بل أنها الملامح الفعلية المشكّلة لحقيقة الإنسان ذاته، ذاك الذي يتحوّل "أناه" عن "مركزية الجوهر المفكّر" إلى الاعتراف بـ "كوجيتو" حسّي يعلن "الحواسّ" محورا للفعل والحركة ويفسح مسافة للرمز والتأويل.. إنه الإنسان الكائن بين جدلية الذاتين: "الذات المنفردة، والذات المشتركة"، جدلية "الأنا والآخر"، "النحن والهُم"، وغير القادر في ذات الوقت عن الانفصال عن ذلك القانون الكوني الذي تردد صداه عبارات الكاتبة:

"كيف لنا ان ننجو من سطوة ذلك القانون الكوني المعقّد الذي تحكم تقلباته الكبيرة تفاصيل جدّ صغيرة، تعادل أصغر ما في اللغة من كلمات، كتلك الكلمات الصغرى التي يتغيّر بها مجرى حياة"[1]؟

إنها لعبة، ثنائية الأبعاد بل ثلاثيتها أحيانا، تتركز عليها بُنية الخطاب في "فوضى الحواس":، امرأة مقابل رجل، ذكر قبالة أنثى، كلمات تقول صمتا، صمت يحرّكه حرف وحفيف كلمات، شوق مقابل لامبالاة، انشداد وحرمان، قلق وارتياح.. ترسم من خلالها أحلام مستغانمي قدرا للإنسان كما تمثّله مخيالها، إذ:

"كيف لنا ان نعرف وسط تلك الثنائيات المضادة في الحياة، التي تتجاذبنا بين الولادة والموت.. والفرح والحزن.. والانتصارات والهزائم.. والآمال والخيبات.. والحب والكراهية.. والوفاء والخيانات.. أننا لانختار شيئا مما يصيبنا "[2].

من هنا، قد يبو لنا أن فعل المقارنة السريعة بين الروايتين من شأنه أن يظهر شكلا من أشكال الانقلابية في الأدوار، بلوره أسلوب المؤلّفة. فإذا كانت أحلام قد أعلنت في "ذاكرة الجسد"، المرأةَ وطنا للرجل من خلال خطاب روائي حركّته لمساتُ امرأة ونطقه لسانُ رجل، فإن التصوّر ينقلب في "فوضى الحواس"، لتُعلِنَه

1 المرجع السابق، ص 19.

2 المرجع السابق، نفس الصفحة.

وطنَها، تقولُه على لسانها ووفق انسياب حروفها، بحسب تقاطع واختلاف الأدوار التي يضطلع بها في حياتها، وبحسب تقاطع حقيقة الواقع ووهْم الأدب، حتّى أنها تردده على طريقتها، وتبْنيه وفق مخيالها:

"كنت أرى في قامته الوطن، بقوته وشموخه. وفي جسده الذي عرف الجوع والخوف والبرد، خلال سنوات التحرير، ما يبرر اشتهائي له.. واحتفائي به إكراما للذاكرة.. كم مرّ من الوقت، قبل أن اكتشف حماقة خلطي عقدة الماضي.. بالواقع المضادّ.

تماما، كخلطي الآن، بين وهْم الكتابة.. والحياة، وإصراري على الذهاب إلى ذلك الموعد الذي أقنعت نفسي عبثا به بأنني لست معنيّة به، وأنه سيتمّ بين كائنات حبريّة، لا يحدث أن تغادر عالم الورق"[1].

تتشابك من جديد خيوط الرواية، بين ذاكرة وتاريخ، بين عبرات ووهم وفوضى للحواس.. تشابك روائي لا يتعلق الإغراق في تفاصيله بغرضنا الفلسفي، باعتبار أن تفصيل ذلك الفعل يبقى من مهمة اكتشافات القاريء الولوع بالأدب والمنشغل عن البحث الفلسفي، ويتّصل بمدى قدرته على تحويل ما نسجه مخيال الروائيّة إلى مادة أدبية منكشفة أمامه، لذلك يقتصر قولنا على الإشارة إلى ما يتعلق برهاننا، وإلى ما ينسجم معه من ملاحظات:

أوّلا: أنه رغم ما نلمح من بعض الاختلاف بين الروايتين، فإنهما تلتقيان في سياق نقدي يمكن أن نعدّه نقدا غير معلن للخطاب الذكوري، في مستوييهما معا. ولكنه نقد لا يقصد نموذجا بعينه، ولا يستهدف أسلوبا محددا، وإنما هو نقد لفكرة محددة، أو لخلفية "إيديولوجية" تتقوّم على أن الكتابة هي صناعة للذكور، وأن المرأة لا تقدر أن تكون فيها "فاعلا"، وإنما فقط "موضوعا" للكتابة، يشكّله القلم الذكوري على طريقته، ويُدينه بحسب ما تضمّنه مخزونه النفسي وما تركّزت عليه أحكامه الأخلاقية الذاتية.

ففي "فوضى الحواس"، يبدو، أن الرّاوية، إذ تقول ذاتها النسائية من جهة انفعالاتها المختلفة، لا تتعامل مع ذلك وفق مقياس الأحكام الأخلاقية التي قد تجرّم

1 المرجع السابق، ص 39.

انفعالات المرأة ورغباتها واشتهائها مثلما قد يحدث في مستوى خطاب أدبي ذكوري عاكس لصدى أصوات مجتمعات ذكورية – عربية خاصة – لم تبلغ بعد في مستوى مخزونها اللاشعوري حدّ التعامل مع الرغبات الذكورية والأنثوية على قدم المساواة، بل تعمد إلى إباحة الأولى والتعامل معها بمنظور مقبول ربما، وإلى تجريم الثانية واعتبارها محظورا إجتماعيا يدين الأنثى. فكأنّه من هذه الزاوية بالذات، تعمد أحلام مستغانمي إلى تقويض مسكوت عنه، ينتصر لأعماق أنثى، نقدا لتجنّ ذكوري عنها، ويجعل القول في المحضور الإجتماعي، أمرا ممكنا.

ثانيا: أن قلم أحلام، لا يكتفي أن ينتصر لوجود أنثوي، بل يَصِلُ الوجودَ "وحدة" بينهما، ذلك القابع فيها وتلك القابعة فيه، ذلك التاريخ المشترك، وتلك التجاذبات التي تجعل الأنا جسرا للآخر، وتهِب الآخر إمكانا من خلال حضور الأنا.

لعلّه إذا، في خطابها الروائي، ما ينتصر إلى شكل من أشكال التقويض القيمي لقيم ذكورية، لم تكن لتنشأ إلا على أنقاض أنثى، إعلانا لتوحيد، وحدة، انصهارا وحلولا لذاتين يؤرخان معا لقصص وجود، وانفلاتات إنسان.

ومن ثمّ، فإنه إذا ما رمنا تصنيفا لروايتيْ أحلام مستغانمي، ضمن شكل من أشكال الخطاب النقدي للموروث التقليدي للخطاب الذكوري، فهل يعني ذلك، أنه يمكن اعتبار هذا الصّنف من الخطاب، كتابة تأسيسية، أم أنها لا تعدو أن تكون ارهاصات أدب، لم تتجاوز تقفّي أثر حرية الكلم، وخيالات الأدب وإبداعاته؟ وهل أن في روايتيْ أحلام، ما يمكن أن يحُوّل تصنيفه، من جنس الخطاب الأدبي، إلى جنس من القول الفلسفي؟

يبدو أنه ليس بإمكاننا أن ننكر ما تتوفر عليه روايتي أحلام من خيط ناظم على جهة الموضوع، لا سيما إذا ماأضفنا إليهما رواية "عابر سرير". فالروايات الثلاث، وإن انفصلت طباعة، وإن اختلفت أسلوبا، فإنها لا تنقطع عن وَصْل أو عن نسقية فكرية تروي تاريخ حرب التحرير الجزائرية، وما يثيره الحدث من تفرّعات إبداعية وأدبية وفكرية لا يتقنها إلا قلم الأديب.

ومع ذلك قد نحتاج – حتى يتسنى لنا تجميع حكم على مدى نسقية خطاب أحلام وعلى مدى استجابته إلى شروط الكتابة الفلسفية – أوّلا، إلى الاطّلاع على

نمط آخر من أنماط كتابتها، ونعني به كتابها "**قلوبهم معنا وقنابلهم علينا**". وثانيا، أننا نحتاج للحكم على ذلك، قولا فلسفيا بالأساس، منهجا وموضوعا، قراءة ومحاولة لترتيب كتابة أحلام ضمن أصناف الخطاب الممكنة..

III – كتاب: "قلوبهم معنا وقنابلهم علينا": وجع إنسان، ومكابدة وجود:

في توضيح لهذا المؤلّف الذي يختلف من جهة بُنْيَتِه الداخلية عن بنية ما أسلفنا من رواياتها الثلاث، نظرا لأنه يتضمّن تجميعا لجملة من مقالاتها، تقول الكاتبة: "**لا اعتبر هذه المقالات أدبا، بل ألما داريته حينا بالسخرية، وانفضحت به غالبا عندما تعدّت الإهانة الجرعة المسموح بها لقلب عربيّ يعاني من الانفة**"[1].

فهل تعني عباراتها تلك، أننا أمام منعرج لجنس آخر من أجناس الكتابة؟ هل يدلّ ذلك على، أن الوجع لا يحتاج إلى لغة الأدب لينكتب، وأن الانخراط في الانهمام الوجودي للإنسان لا يحتاج تميّزا تقنيا –كما في لغة الأدب – بين بطلين: ذكر وأنثى؟

ربّما – ونحن الآن في واقع تحوّلات سياسية عربية تتأرجح بين ما تخطّه ملامح "ثورات الربيع العربي" وبين أطماع أمريكية وأجنبية – يمكننا أن نجد في قول أحلام ما يبرره: "**سيقول بعضكم كتابي هذا جاء متأخرا، وأمريكا على أهبة مغادرة العراق. وأردّ بقول لكرومر، يوم كان في القرن الماضي حاكما على السودان، وجاء من يسأله: "هل ستحكم أيضا مصر؟" فأجاب: "بل سأحكم من يحكم مصر" فالمحتل لا يحتاج اليوم إلى أن يقيم بيننا ليحكمنا.. إنه يحكم من يحكموننا، ويغارون على مصالحه، بقدر حرصه على كراسيهم**"[2].

تبدو إذا، ملامح الكتاب مغايرة تماما لما ألفنا عليه روايات أحلام التي أسلفنا ذكرا، وكأنها تستعدّ في هذا المؤلّف إلى انكتاب من نوع آخر، إلى وجع ليس وجعها فحسب ولا هو وجع أبطال رواياتها.. إنه وجع الإنسان العربي عموما، الذي تتقاذفه مصالح الدول المهيمنة على العالم، بل أنه جرح الإنسان بمختلف

1 أحلام مستغانمي، قلوبهم معنا وقنابلهم علينا، دار الآداب، بيروت، الطبعة الثانية، 2009، ص 7.

2 المرجع السابق، ص 8.

معاناته، حين تتحوّل لغة الحروب ولغة الاستعمار الاقتصادي والسياسي، عنوانا للعصر... وحين يتراجع قلمها عن لغة كتابة تمتهن الإبداع والرمز، إلى لغة تسكن إلى تعرية الواقع، وقوله ببساطة حرف، تنطق بساطته، بكل المعنى..

من هنا، يمكن القول أن كتاب "قلوبهم معنا وقنابلهم علينا" من شأنه أن يلفت نظرنا على مستويين:

- على مستوى أسلوب كتابته.
- وعلى مستوى ما كان من موضوع مقالاته.

فعلى خلاف ما تقدّم من رواياتها، ينفتح **أسلوب** الكتاب على ضرب آخر من ضروب الكتابة، يجانب تقنية اللغة الروائية الرمزية، إلى لغة أكثر واقعية وبساطة.. لغة، كما المشهد اليومي الذي لا يحتاج إلى تنميق اللغة ولا إلى اشتغال المخيال.. إنه ذلك المشهد الذي تتحوّل حروفه إلى معاناة يومية، تتقاطعها رغبة الكيان، وسيطرة أصحاب القوى.. فينطقها عراء الموجود دون غلاف.. بِلُغَة، تذكّرنا بعبارة هيدغر: "إن اللغة، مأوى الوجود"..

إن كلمات أحلام في مستوى هذا المؤلّف، لا تبدو منشغلة بالكلمات، كما كان من حرفيتها الإبداعية في روايات، جمّلتها إبداعية اللغة، إلى حدّ تحوّل معه الكلم إلى صور جمالية لا تنفصل عن ابداع متقن ومركّز.. فحروفها في مستوى هذا المؤلّف لا تنشغل باللغة، قدر انشغالها بالمعنى.. حتى أنه يكاد ألا يكون للغة من وظيفة، سوى قول الموجود، وافساح المجال للمعنى أن يقول ذاته ويروي عنها دون وساطة الراوي أو رمزية الكلمات... وبالتوازي، مع شكل الكتابة، يتركّز موضوع الكتاب مثلما وصفته "ألما"، قلقا إنسانيا، وحرب مصير...

فموضوع الكتاب يبدو متجاوزا لما اعتادت أحلام أن تحصر فيه ماضيها الروائي وانهمامها الجزائري وانصهارها في قول يروي تاريخ حرب التحرير الجزائرية، وأبطالها وشهدائها.. لينفتح على أفق انهمام أوسع، وعلى خوض في موضوع قومي أشمل، بل ولعلّه انفتاح على موضوع إنساني بالأساس يعلن عن قلق وجودي للإنسان المعاصر في واقع الحرب وما يفرضه من تهديد لبقائه..

إنه موضوع ينشغل بحروب الاستعمار المعاصرة بمختلف أبعادها وبمختلف مواقعها، بين العراق وفلسطين وأفغانستان، وما كان فيها من مخططات أمريكية

تحتفي بالموت وتراقص التقتيل وتنتعش بإهانة كرامة الإنسان وعلمه، مقابل ما يوليه رؤساء البيت الأبيض من حفاوة بكلاب البيت الأبيض وقططه.. ا مـــزيج مـــن السخرية والجدية وسم تناول أحلام لمفارقات الواقع المعاصر، جعل من المؤلّـــف – وإن وُلد بعد توقيته الفعلي –، مؤلّفا لازال يلامس أنينا ومعاناة من وجع الإنســـان العربـــي، ولازال يلفت الانتباه إلى قضاياه بين قلق الوجود وضبابية المصير..

لعلّه يفترض علينا إذا، من هذه الزاوية بالذات، أن ننحى في قراءتنـــا لهـــذا الكتاب منحى فلسفيا بالأساس. فجملة المقالات الناقدة والساخرة المجمّعة فيـــه لا تقف قراءتها في تصورنا، عند مجرّد نقل لوقائع، وإنما تتعداها أساسا إلى ما تثيره من إشكالات فلسفية حول الوجود الإنساني وحول ما لا يكاد يخلو منه خطـــاب في "أجهزة الإعلام المعاصرة": من خوض في مسألة "حقوق الإنسان"..

فقراءتنا لكتاب "قلوبهم معنا وقنابلهم علينا" لا تجعلنا نتأمل أثرا أدبيا.. بـــل لعلّها تجعلنا ننفلت من واقع الأدب إلى تراكم للسؤال – "الإنسان":

أي مآل لإنسان اليوم، إنسان التقنية والوسائل الحربية المتطورة؟ وأي حقوق لهذا الكائن؟ هل يصح لنا في إطار هيمنة أمريكية على العالم، أن نتحدّث فعلا عن حقوق إنسان؟ وعن أي حقوق نتحدث، هل هي حقوق كما يرسمها الأمريكـــي لغيره من الشعوب ويميّز عنها نفسه، أم هي حقوق للإنسان وفق ما يجب أن يمليـــه العقل والطبيعة؟ أليست هي فقط، "حقوقا" مشرّعة لاستعمال السلاح ضد الآخر، ومانعة لأن يكون ما أراد؟

هل يمكن فعلا، في سياق ما نرى من أحداث دموية ومن اعتـــداءات علـــى الإنسان، أن نتحدّث عن وجود فعلي له؟ هل وجد الإنسان فعلا، أم أن ما نراه لا يعدو أن يكون "ملامح" لإنسان لم يتشكّل بعد، ولايـــزال "مشـــروعا" لوجـــود ومصير، على حدّ عبارة سارتر؟

إنه من هنا تحديدا، من زاوية ما يثيره فينا كتاب أحلام مستغانمي من تداعيات فكرية ومن تجربة القلق الوجودي، يمكننا القول أننا نتحسس فيه نقلـــة نوعيّـــة في كتابتها، يتحوّل بمقتضاها الاهمام الأدبـــي إلى انخراط في قضايا الإنسان: بين واقع هيمنة رأسمالية على العالم، وبين ما يحتاجه من حقوق مدنية وسياسية واقتصادية.. بين هزّات الواقع ومعاناته، ومطمح المآل..

ففي هذا الكتاب يتغير أسلوب أحلام من أسلوب أكثر رمزية في مستوى رواياتها، إلى أسلوب أكثر التصاقا بواقع إنساني قلق، تُشكّل ملامحه أهوال الحروب، ويعرّي القلمُ جرحَه وهمومَه.. فتبدو الكلمة أكثر واقعية دون تزيين أو رمزية، ويبدو الخطاب غير فاصل بين ذكر أو أنثى..

في هذا المؤلّف، تختفي تماما فوارق الخطابين الذكوري والأنثوي، ليتّحد ألما عربيا واحدا، مكابدة إنسانية واحدة، تجارب للمعاناة ضد حروب استعمارية فرضها واقع سيطرة لقوى رأسمالية تجعل من وسيلة استثمارها الإنسان العربي ومن شابهه وضعا، وتتخذ من تهميش أحلامهم جميعا، ومن تحويل واقعهم إلى واقع يفتقد هدوءه وأمنه، رصيفا لبلوغ أهدافها..

من هذا المنطلق تحديدا، يمكن أن نعتبر أن تجربة القلم في مستوى هذا الكتاب، لا تمتنع أن تكون توقيعا لتجربة وجود، وتجربة صراع لا تتكافؤ فيه القوى..

فهل يكون هذا المؤلّف إعلانا عن منعرج في أسلوب كتابة أحلام ومواضيعها؟ هل يمكن أن نعدّه نقلة نوعية، من مستوى خطاب روائي يحترف تقنية الأدب والإبداع، إلى جنس من أجناس الخطاب التي تتبنى قضايا الإنسان؟

بمعنى، هل يمكن أن نعتبر هذا الجنس من التأليف عند الكاتبة، تأسيسا لقول في الإنسان يتجاوز، تقليد الفصل، بين خطاب ذكوري وخطاب أنثوي؟ هل يمكن أن يحمل هذا الخطاب شكلا من أشكال النقدية لحيادية القول، تشريعا لخطاب ينهمّ بالإنسان دون تفصيل أو تمييز؟ هل يمكن أن يكون خطاب الإمكان والكيان، تجاوزا لواقع القلق والحرمان؟

IV – أدبيات أحلام مستغانمي والانتساب الفلسفي: نسقية فكرية أم تأسيس لإنسانية الخطاب: فلسفة للإنسان، أم قول في "إنسان الفلسفة"؟

لا شك، أن حكما ما، يمكن أن نكوّنه على مؤلفات أحلام، يحتاج منّا استحضار مقاييسنا الفلسفية **منهجا وموضوعا**، باعتبار أننا لا نطمح إلى تأسيس قول في الأدب، بقدر ما نراهن على إمكان إيجاد قراءة فلسفية لجنس من أجناس الخطاب الأنثوي الذي لا يمتهن الفلسفة بقدر ما يمتهن الأدب.. ولعل الحديث عن "شروط إمكان" على حدّ العبارة الكانطية، لقراءة فلسفية لبعض مؤلفات أحلام،

تفترض منا أن نعرضها على محكّ فلسفي، تماما كما عرضت النقدية الكانطية العقلَ أمام محكمة ذاته. وهو ما من شأنه أن يوجّه انشغالنا إلى التوقّف عند هذين الأمرين اللذين يعرّفان الفعل الفلسفي.

فعلى مستوى المنهج لا يغفل تاريخ الفلسفة أن يطلعنا على جملة من المناهج الفلسفية – فإذا ما استثنينا منها المنهج البرهاني المنطقي الذي يكتسب درجة العلمية التي تؤسس المنطق الصوري – فإن مناهج الفلسفة تتراوح بين الشك والنقد والتأويل، بما هي مناهج خاضعة لمراحل منهجية عقلية مرتّبة، لا تتسرع الأحكام المسبقة أو الاسقاطات والثوابت، وإنما تنهج نهج زعزعة الثوابت من الأحكام والآراء الوثوقية والتسليمية وفق محاكمة عقلية تأسس، لمواقف تتجاوز الدغمائي إلى العقلي، والوثوقي إلى المعقلن.

أما على مستوى موضوع اهتمام الفلسفة، فرغم اتساع المطلب، فإننا سنقتصر قولا على ما خطّه سقراط من ضرورة المعرفة بالذات "اعرف نفسك بنفسك"، أو بما اختزله السؤال الكانطي الرابع "ما الإنسان؟" لثلاث أسئلة نقدية سابقة: ما الذي يمكنني أن أعرف؟ ما الذي يجب علي أن أفعل؟ وما الذي يجوز لي أن آمل؟ فجميعها تلتقي في محور واحد: الإنسان، بمختلف أبعاده المعرفية والقيمية والوجودية.. الإنسان: بين الفعل والمأمل والمطمح.. وهو الإنسان إذا، بأبعاده الذاتية والوجدانية والأكسيولوجية والبينذاتية ضمن موقع مركزيته في الكون..

فمن هذا الاتجاه تكون الفلسفة تفكيرا في الإنسان، اهماما به حين تتخذه شأنا فكريا وموضوع نظر، ضمن نسقية من القول تمنح الخطاب الفلسفي، منطقه الداخلي الذي يحرّك تاريخ الفكر، لا داخل النسق الفلسفي الواحد فحسب وإنما ضمن تسلسل الأنساق الفلسفية بما هي مراحل أساسية لا تمتنع عن جدلية وصْل وفصل، وعن فعليْ تقارب وتباعد.. ا!

فإذا ما اعتبرنا أساسية هذين الأمرين اللذين أسلفنا كشرطيْ إمكان للخطاب الفلسفي، فإلى أي حدّ يمكن أن نعتبر التجربة الأدبية لأحلام مستغانمي، تستجيب لهذه الشروط؟ هل يمكن أن تنتسب – وإن في بعض ملامحها – إلى القول الفلسفي، أم أنها لا تعدو أن تكون جنسا من التأليف الذي يتقاطع حينا مع الخطاب الفلسفي ليتباعد عنه أحيانا؟

إذا ما انطلقنا من هذه المقاييس الأوّلية، واعتبرناها معايير موضوعية لقراءة ما كانت عليه البُنية الروائية والأدبية لكتابات أحلام، بوصفها شكلا من أشكال الخطاب النسوي المعاصر، فإنه لا يسعنا إلا أن نقف عند مسألتين:

أوّلا:

أنه على مستوى مقارنة الأسلوب الروائي لأحلام - لا سيما ما كان في مستوى رواياتها التي شكّلت مواضيعا لنظرنا - بأسس المنهج الفلسفي ومقوّماته، يبدو أنه على الرغم مما يكتسبه أسلوب أحلام من جمالية وإبداعية تؤكّد قدرة فائقة للكاتبة على الرسم بالكلمات وتطويعها بشكل يمنحها خصوصية وتميّزا، وبالرغم مما يتضمنه من قدرة على رسم لمشهدية الأحداث والمعنى، بما يجعل القارىء ينشدّ لنغم داخلي كتب بالكلمات، ولرحيل ما بين مكان وزمان يخطّهما مخيال الحرف، ولأسلوب روائي يعتمد رمزية الكلمات والمعنى، يخرجه عن دائرة التأليف التقليدي المعتاد، إلى خطاب يراوح بين الجمالية والمعنى،.. فإن تقنيتها الروائية تلك - من جهة مقارنتها بالمنهج الفلسفي - تظل في مجال مختلف عنه، بل أنها تكاد لا تمتّ له بصلة.

فعلى جهة التقنيات الشكلية للكتابة، لا تنهج أحلام مستغانمي صرامة النهج الفلسفى ولا الدّقة التقنية للكتابة الفلسفية وحياديتها، فلا نستطيع أن نصنّف أسلوبها لا ضمن نهج التوليد السقراطي، ولا في مستوى النهج البرهاني الأرسطي ولا في مستوى الشك المنهجي للغزالي أو لديكارت، ولا ضمن أسس النقد الكانطي، ولا ضمن أبعاد المنهج الهيرمينوطيقي الفينومينولوجي، بل أن تقنياتها الأسلوبية تمتنع أن تكون إحداها على الإطلاق...

فهل يعني ذلك، أن مجانبتها الأسلوبية لتقنية الكتابة الفلسفية ومقاييسها، هو في حد ذاته مجانبة للمبحث الفلسفي؟، هل، يمكن أن ينسحب شكل الكتابة، على المضمون، فيمتنع مضمون ما كتبت عن الإلتقاء بمواضيع الفلسفة؟

هل أن مواضيع الروايات، من شأنه أن يحوّل الذات الروائية إلى ذات خارجة عن مجال الاهتمام الفلسفي، أم أن تغاير الأسلوب واختلافه لا يتجاوز أن يكون اختيارا ذاتيا، لا يتعدّى مجرّد مجانبة لتقليد فلسفي في مستوى التقنيات دون أن يمنع إلتقاء في مستوى الاهمامات؟

ثانيا:

أن تقييمنا لمضمون كتابات أحلام من الزاوية الفلسفية، لن يتجه إلى استعادة الخوض في التفاصيل الروائية، باعتبار أن الفعل الروائي من جهة كونه فعل روائي في ذاته لا يعني مبحثنا بالأساس، وإنما سيقتصر قولنا، على جملة من الإشارات:

أ. التأكيد على شكل النسقية التي تربط روائيات أحلام الثلاث: "ذاكرة الجسد، فوضى الحواس، وعابر سرير" إذ لا يمكننا أن نغفل ترابط الموضوع الموحّد للروايات الثلاث حتى أنها تبدو وكأنها أجزاء ثلاثة متلاحقة لفكرة واحدة ارتأت الكاتبة أن ترويها على مراحل.. حرب التحرير الجزائرية.. وما تقاطع معها من اهمام الكاتبة بأحداث عربية..

إلا أن هذه النسقية، لا تبلغ في تصوّرنا بُنية النسق الفلسفي وانسجامه الداخلي وانغلاقه على ذاته وفق ما تتصوره منهجية الفيلسوف، وإنما لا تكتسب هذه المؤلّفات نسقيتها إلا من جهة ما يتوفّر فيها من فكرة ناظمة تفتح انشغالات الروايات الثلاثة، على بعضها البعض.

ب. أن أهمّ ما يمكن أن نسطّره من خلال قراءتنا لكتابات أحلام، أن نقف عند ما كان من تجربتها الإبداعية، بما هي تجربة يتراوح فيها القلم بين معان لأبعاد مختلفة للإنسان ولتجاربه الوجودية.

فإذا كانت روايات أحلام مستغانمي لم تنفصل في بعض أبعادها عن مفهوم التجربة الذاتية بما هو مفهوم يحيل إلى معنى المعايشة والمكابدة الذاتية للوقائع والأحداث، باعتبار أن ذات الرّاوية لم تنفصل فيها مع موضوع التجربة، و لم تتركز فيه بعض أحكامها إلا من جهة ما هي أحكام ذاتية غير قابلة للتعميم نظرا لما شكّله بعض أبطال معركة التحرير الجزائرية الذين ترويهم، من جزء من واقعها وتاريخها الفردي، فإن ذلك لم يمنع أن تؤسس لشكل من أشكال التجربة الموضوعية التي تنفصل فيها أحكام الذات المتحيّزة إلى تاريخها، عن مواضيع الكتابة، لتعلن حيادية للقول وموضوعيته حين يتعلق الأمر بتحويل الفعل الأدبي إلى قول في تجربة الإنسان على عمومه، وتعبير عن واقعه وهواجسه وآلامه..

ولعلنا من هذه الزاوية بالذات، يمكن أن ننسب موضوع القول الروائي كما احترفته المؤلّفة بأبعاده المتعددة إلى مجال القول الفلسفي. أي، بما هو قول في

الإنسان والوجود وإن كانت صورة "الخطاب – الإنسان" كما خطّها قلم الكاتبة لا تتصف بذات الحنكة والدقة الفلسفيين، حول قضايا الوجود الإنساني.

فـ "ذاكرة الجسد" مثلا، تبدو أشبه بذاكرة عشق منسية يتسلل من بينها القلم للكلمات، ولذكرى لقاء وطن أرض، ووطن إنسان:

"كيف أنا؟.. أنا ما فعلتِه بـي سيدتي.. فكيف أنتِ؟.. يا امـرأة كسـاها حنيني جنونا، وإذا بها تأخذ تدريجيا، ملامح مدينة وتضاريس وطن"[1]..

ذاكرة، يتحوّل بمقتضاها الوطن وسكن الأرض، انصهارا للذات في الموضوع، وقضية للإنسان تحكم مواضيع انشغاله:

فـ "الآن، نحن نقف جميعا على بركان الوطن الذي ينفجـر، ولم يعـد في وسعنا إلا أن نتوحّد مع الجمر المتطاير من فوهته، وننسى نارنا الصغيرة "[2].

إنه الوجع الإنساني حين يسكن الإنسان ويتحوّل من تجربة ذاتية إلى تجربـة وجود، يتّحد فيها الذاتي بالموضوعي، ويتحوّل من خلاله حديث الذات عن ألمهـا الذاتي إلى رسالة تعبّر عن مكابدة الإنسان وتقلّبه بين "قوسي الموت والحياة"، على حدّ عبارة كارل ياسبرس، فـ "**ها هو ذا القدر يطردني من ملجئي الوحيد، مـن الحياة والمعارك الليلية، ويخرجني من السريّة إلى الضوء، ليضعني أمـام سـاحة أخرى، ليست للموت وليس للحياة، ساحة للألم فقط** "[3].

ففي مستوى رواية أحلام تلك، ينكتب الإنسان موضوعا للذاكرة، ذاكرة للجسد، وذاكرة من جسد، وذاكرة من تفاعلات الفكر والجسـد.. "وحـدة للامتداد والفكر"، على الطريقة "السبينوزية".. نسـيجا اجتماعيـا وعاطفيـا وتاريخيا، معلنا عن معركة وجود، تتحول بمقتضاه الرّاوية – المرأة، إلى كلمات تقال بنبرات رجل، تحرّكه أنامل امرأة.. يتخفّى القلم، وتظهر الكلمات علـى لسان رجل، تقولها تلك الأنثى، على طريقة يتفاعل فيها صوت المرأة الكـامن في الخلف، مع كلمات رجل يكتُبها على طريقتـها هـي، بانفعالاتِـه هـو، وبعقلانيتها هي.

---

1 ذاكرة الجسد، ص 13.

2 فوضى الحواس، ص، 2.

3 ذاكرة الجسد، ص 35.

إنها تجربة اللقاء بالآخر الإنساني، تجربة التواصل البينذاتي إذ تتجاذبه "فوضى للحواس"وتتقاذفه الرغبات تجاذبا وتباعدا، اشتهاء ونفورا، اعترافا واكتشافا، فينكتب ما بينهما، تاريخ للذكرى والمكابدة والحرب والمعاناة..

إنها هموم الالتزام بقضايا الإنسان، التي لم يغفلها تاريخ سقراط حين رفض التراجع عن حكم الموت، مقابل أن تحيا حرية الفكر والمعتقد، ولا تراجع عنها قلم ابن رشد حين كان قلم الفيلسوف أشد محنة يمرّ بها أمام اختبار رافضي حرية الفكر، ولا سكت عنها صوت حنّه آرنت تقويضا لصورية وهْم عالمي يروّج لخدعة "حقوق إنسان صوري" لم تجد تطبيقها الفعلي في مستوى واقع الشعوب المتحرّرة، ولا تغافل عنها قلم أحلام مستغانمي إذ أخذها على عاتق رسالته رغم جرم الكتابة في واقع إنسان معاصر تصغر الحروف أمام أشكال اغترابه:

–"لا افهم من اين لكِ القدرة على مواصلة الكتابة وكأن شيئا لم يحدث، لا هذه الأرض التي تتحرك تحت قدميك ولا هذا الدمار الذي ينتظر أمّة بكاملها منعاكِ من الكتابة.. توقّفي.. تأمّلي الخراب حولك. لا جدوى مما تكتبين..

–قلت كمن يعتذر: ولكنني كاتبة..

–ولأنك كاتبة عليك أن تصمتي.. أو تنتحري. لقد تحوّلنا في بضعة أسابيع من أمّة كانت تملك ترسانة نووية.. إلى أمّة لم يتركوا لها سوى السكاكين.. وأنت تكتبين. وتحوّلنا من أمّة تملك أكبر احتياطي مالي في العالم، إلى قبائل متسوّلة في المحافل الدولية.. وأنت تكتبين. هؤلاء الذين تكتبين من أجلهم.. إنهم ينتظرون ان يتصدق عليهم الناس بالرغيف وبالأدوية.. ولا يملكون ثمن كتاب. أما الآخرون فماتوا. حتى الأحياء منهم ماتوا.. فاصمتي حزنا عليهم.. ا"[1]:

هو الإنسان إذا، ذلك الكائن المحور، كائن" الألم" كما عرّفه ايريك فايل، ومثلما تبنّى خطابُ الكاتبة الخوض فيه، حتى استحال القول فيه سؤالا:

"من يعتذر لموتانا؟وهل للقتيل من كبرياء إن كان الأحياء مسلوبي الكرامة؟[2] وماذا عن دمنا وقتلانا"!![3].. إنه، في واقع يشكو انقلاب القيم

1 فوضى الحواس، ص 129.
2 قلوبهم معنا.. ص 241.
3 المرجع السابق، ص 242.

الإنسانية، يتحوّل الإنسان وسيلة لا غاية، ويتحوّل القلم إلى سلاح ناقد وأداة للانعتاق.

لا يبدو مهمّا إذا في عبارات كهذه لأحلام مستغانمي، أن ينشطر الخطاب إلى خطاب ذكوري وآخر أنثوي، أو ينفصل بين منتصر لهذا أو ذاك، وإنما يتركّز في كتابها كخطاب ينتصر للحرية والوعي والجمال، للإمكان دون العدم، فيدين تبعا لذلك كل اعتداء، إدانة لم تمتنع المؤلّفة أن عبّرت عنها في "رسالة إلى فلورانس"، حين أبدت موقفها من اختطاف الصحفية الإيطالية في افغانستان كليمنتينا كانتوني، واختطاف الصحفية الفرنسية فلورانس أوبينا بالعراق أيام حربها مع الأمريكان:

"كليمنتينا كانتوني. اسم كأغنية إيطالية تشمّ منه رائحة زهر البرتقال. كليمنتينا رهينة افغانستان. تصوّري، ثمّة من يلقي القبض على شجرة برتقال بتهمة العطاء، ومن يهدد بإعدام معزوفة لـ "فيفالدي"، إن هم لم يمنعوا بثّ برنامج موسيقي يُعرض أسبوعيا في التلفزيون الأفغاني. النساء الأفغانيات اللائي كانت كليمنتينا تساعدهن ضمن منظمة إنسانية للإغاثة، معتصمات في انتظار إطلاق سراح ابتسامتها"[1].

وتضيف "اعذريني فلورانس إن نسيتك أحيانا. أشاهد فضائيات عربية، لا وقت لها حتى لتعداد موتانا. لماذا جئتنا في زمن التصفيات والتنزيلات البشرية والموت على قارعة الديمقراطية؟

نحن نعاني فائض الموت العربيّ. لا رقم لموتانا، ولا نملك تقويما زمنيا. لاندري ماذا ينتظرنا في أجندة مولانا "كاوبوي العالم"...

"الذي يختطف شخصا يُسمّى إرهابيا، والذي يختطف شعبا يسمّى قائدا أو "مصلحا كونيا". نحن شعوب بأكملها مخطوفة لتاريخ غير مسمّى. باع الطغاة أقدارنا للغزاة، فلماذا ايتها المرأة التي نصف اسمها وردة.. ونصفه الآخر فرنسا، جئت تتفتّحين هناك "وردة مائية في بركة دمنا؟"[2]

إن القراءة الفلسفية لمؤلفات أحلام مستغانمي، يمكن أن تنتهي بنا إذا، إلى تأكيد وجود شكل من أشكال الكتابة النسائية المعاصرة المجدّدة في أسلوب

1 المرجع السابق، ص 258.

2 المرجع السابق، ص 259.

الكتابة الروائية خاصة، دون أن ينفصل ذلك عن تقاطع مع بعض المطامح الفلسفية، وإن بدا ذلك بحرفية الأديب أسلوبا، وليس بحرفية الفيلسوف منهجا.

فالنص الأدبي لأحلام يبدو مجدِّدا فكريا من جهة ما يضطلع به من تقويض "سلمي" لما دأب عليه الخطاب الذكوري من اعتماد لخلفية إيديولوجية تصوّر له ذاته على أنه الخطاب الأكثر حضورا والأكثر إستقلالية، فيبدو بذلك خطابها مساهما في تأسيس ضرب من ضروب الكتابة الأنثوية المعاصرة التي تتخذ قضايا الإنسان موضوعا مركزيا للتفكير.

فرغم أنه لا يمكننا أن نصنّف كتابات أحلام ضمن نهج الكتابة الفلسفية المحض التي تتقيد بمقاييس منهجية ومضمونية تستجيب للنسقية الداخلية التي تتركّز بها بنية التفكير لدى كل فيلسوف، إلا أن كتاباتها لا تمتنع أن تصنّف ضمن جنس من الكتابة المؤسسة لخطاب إنساني، يتجاوز أشكال الخلافات الممكنة حول ما إذا كان الخطاب ذكوريا أم أنثويا، إلى أفق الإنسان.

إن مباشرتنا لنصوص أحلام مستغانمي، قد يسمح لنا بإعادة ترتيب خطابها الروائي والأدبي بشكل عام وفق ما تسمح به انشغالات المتفلسف، لا وفق ما تنسحب إليه اهتمامات الروائي، ومن ثمّة، لن تمتنع قراءتنا الفلسفية أن تختزل تجربة الكتابة عند أحلام في كونها "كتابة تجربة" من جهة ما هي تجربة للمعنى وتجربة للتواصل عبر الكلمات. ومن جهة ما هي تأكيد لتجربة الجسد، بما هي تجربة تاريخ متعين داخل مجال النسبي، مجال الزمان والمكان. ومن جهة ما هي تجربة للمكابدة والاهمام بالوطن وقضاياه وبما هي تجربة مصير وتشريع لكيان. إنها تعبير عن تجربة الوجع والألم والقلق الوجودي بما تحمله معا من تجربة ذاتية وجودية ومن تجربة بينذاتية للوجود والمكابدة يتقاطع من خلالها الأنا بالآخر فاعلا ومنفعلا، تجاذبا وتباعدا، حنينا ورفضا. أنها تجربة قيم، وفعل تحرر تخوضه الشعوب ونداء للحرية كقيمة إنسانية مطلقة.

إنها، إذا، في مستوى القول في الإنسان، وفي مستوى جعله محورا للتفكير، تلتقي أدبيات أحلام مع الفلسفة، شكلا من أشكال التأكيد على محورية القول فيه وإن اختلف الأسلوب والمنهج.

من ثمّة، يبدو أنّها تستعيد إنتاج الأدب في شكل تعبير عن تجارب وجودية للإنسان، تتراوح بين تاريخ وميول وتوق إلى تمثّل مصير قادم.. يجعل من الإنسان محور الكتابة، ومن صورة الإنسان لا "مشروع حب قادم" فحسب على حد عبارتها، بل" مشروع الزمن القادم"، مشروع نظر فلسفي مفتوح لا يتسنى له أن يتشكّل إلا في سياق مكابدة تجعل حرية الإنسان عنوانا ومطمحا دائما...